نظرية الدولة

لدى إبن خلدون

د. براهمي نصيرة

جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية العلوم الانسانية والإجتماعية

مقياس:

تاريخ الفكر الإجتماعي والسياسي
في الفترة المعاصرة

المستوى ثالثة تاريخ عام

محاضرة على الخط

عناصر المحاضرة:

مدخل مفاهيمي

نشأة الدولة

عوامل قيامها

أطوارها ومراحلها

وظائفها

مقدمة:

يعتبر موضوع نشأة الدولة وتأسيس السلطة من المواضيع التي تشكل ميدان خصب في الفكر السياسي بحث فيه الغرب والعرب ولكل نظرياته من زوايا مختلفة، فهناك من رأى أن الدولة تنشأ عن عجز الفرد عن الاكتفاء بذاته وحاجاته إلى أشياء أخرى لا حصر لها، وهناك من رأى أنها لا يمكن أن تنشأ خارج أطر المدينة، كما يعد إبن خلدون من أهم الأسماء التي تركت تراثا قيما في هذا الموضوع لا تزال نظرياته مرجعية وأساس لكتابات الغرب والعرب في التنظير .

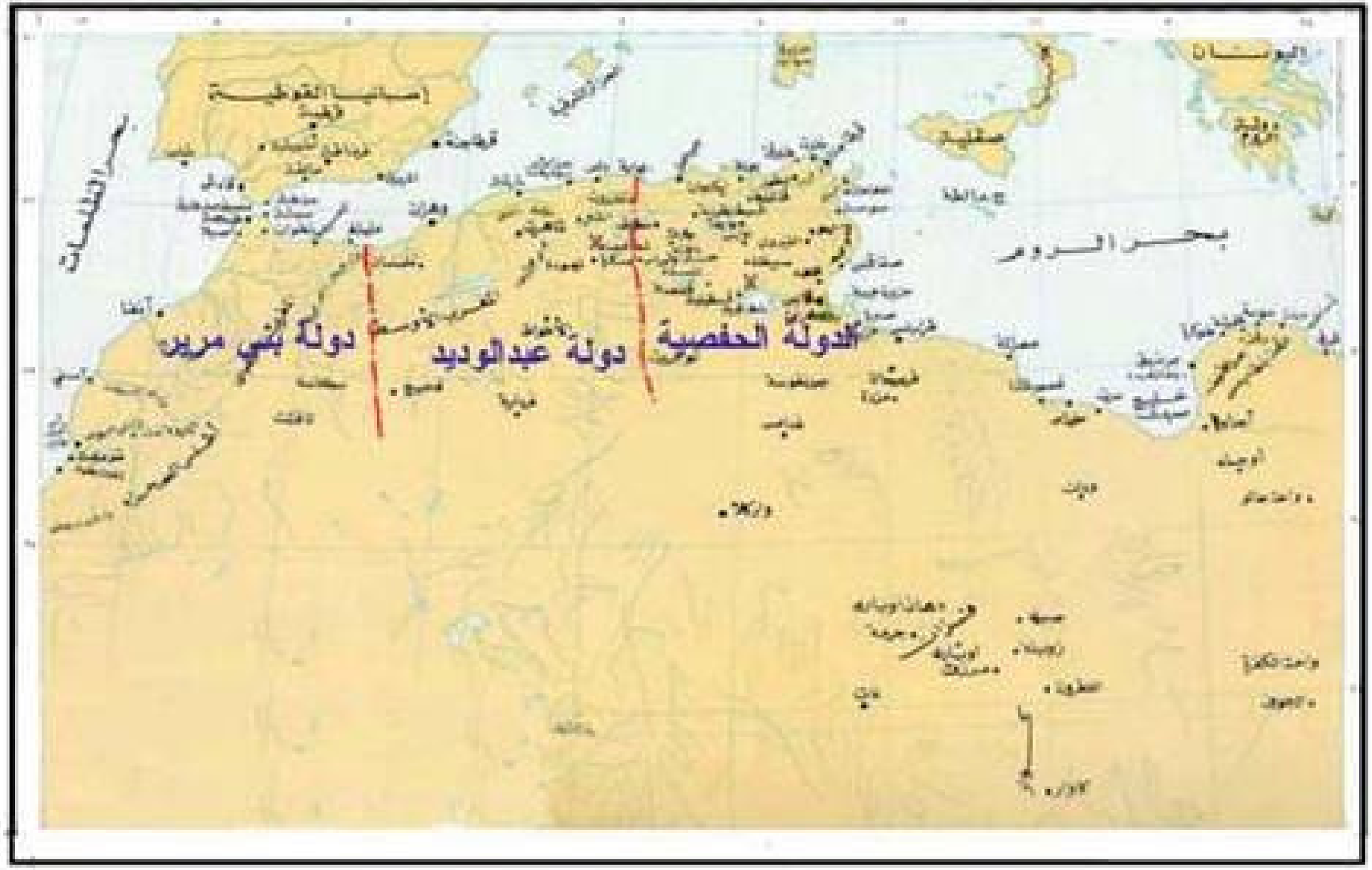

الحدود التقريبية لدول المغرب العربي
في القرن الثالث عشر

في هذا السياق نطرح الاشكالية التالية:

ما هو مفهوم الدولة لدى إبن خلدون ؟ كيف تنشأ؟ وماهي عوامل قيامها؟

سنعالج هذه الاشكالية بإستخدام المنهج التاريخي وبالإعتماد على مجموعة من المراجع.

مدخل مفاهيمي:

القبيلة لغة:

يقول إبن منظور "... القبيلة من جماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعدا من قوم شتى كالزنج والروم والعرب، وقد يكونون من نحو واحد وربما كانت القبيلة من أب واحد"، يقوم هذا التعريف على تصور إنتماء القبيلة إلى جد واحد وعليه فتتميز عن غيرها من القبائل والتي قد تكون العلاقات بينها صراع وتعارض ومنافسة .

إصطلاحا:

هي نسق في التنظيم الاجتماعي، مجموعة قرى، أو عشائر... تقطن حيز جغرافي معين يربطها الشعور بالتضامن والوحدة، وهناك من يرى أنها وحدة متماسكة إجتماعيا تقطن بإقليم معين وهي ذات استقلالية سياسية عن غيرها.

العصبية لغة:

هي أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين

إصطلاحا:

حسب إبن خلدون هي الرابطة بين مجموعة من الأفراد وقد تكون رابطة دم أو نسب أو حلف وولاء مع شرط الملازمة حتى يكون التفاعل بينهم، وتستمر هذه الرابطة إلى نسل هؤلاء الأفراد مما يولد شعور بينهم يؤدي إلى التعصب، فنجدهم يدافعون ويحامون عن بعضهم البعض متى كان هناك داع للتعصب، ويكون كل فرد من أفراد المجموعة شعور بأنه جزء من عصبته وتذوب شخصيته الفردية في شخصية الجماعة وعند تعرض الجماعة إلى عدوان يظهر الوعي العصبي، وهو الذي يشد أفراد العصبة إلى بعضهم البعض ويجعل منهم كائنا واحدا وهو ما يسميه إبن خلدون بالعصبية والتي بها يطالب الفرد أو يبتغي الحماية والدفاع، ووفق هذا الطرح وضع إبن خلدون مفهوم أنثروبولوجي وسوسيولوجي للعصبية .

السلطة لغة:

من فعل ثلاثي "سلط" وتدل على القهر و"السَليط" طويل اللسان والسليط عند العرب الزيت، والسلطان الحجة والبرهان ووردت في القرآن الكريم في عدة مواضع منها بعد بسم الله الرحمن الرحيم: "ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين" وأيضا: "إنه ليس له سلطان على الذين أمنوا..." صدق الله العظيم، وردت مفردات السلطة والسلطان للدلالة على العلم والبيان والقوة.

إصطلاحا:

هناك من وضع لها التعريف التالي " قدرة أشخاص أو مجموعات على فرض إرادتهم على الآخرين، إذ يستطيع الأشخاص ذوي النفوذ فرض قراراتهم بواسطة إنزال عقوبات أو التهديد بها على أولئك الذين لا يطيعون أوامرهم أو طلباتهم، وتكاد تكون السلطة موجودة في كل العلا قات الانسانية"

كما يرى علماء السياسة أن السلطة هي ظاهرة سياسية وتاريخية إرتبطت بتأسيس الدولة وقيام الحكم انطلاقا من مبدأ الشرعية كما أنها قوة منظمة تشرف على الشعب وترعى مصالحه، تطورت بتطور المجتمع إنطلاقا من سلطة الأب، سلطة القبيلة ثم الحاكم كما تنوعت مرجعياتها وأصولها .

الدولة:

لغة:

نجد جذور هذه اللفظة في كلمة statu اللاتينية القديمة وتعني حالة أو طريقة العيش وهو لفظ مرتبط بالثبات والاستقرار، ولدى العرب فإن لفظة دولة تعني الفعل والانتقال من حال إلى حال، فهذا الاختلاف اللغوي يعني إختلافا في مفهوم الدولة لدى العرب والغرب.

إصطلاحا:

في الاسلام هي مجموعة من الأفراد المسلمين وغير المسلمين يتوطنون دار الاسلام وتحكمهم سلطة تخضع لسياسة الشرع وتخضعهم له.

وعرفها ماكس فيبر على أنها منظمة سياسية ذات حكومة مركزية تحتكر الإستخدام المشروع للقوة في إقليم معين، وفي إتفاقية مونتيفيديو لسنة 1933 عرفت بأنها إقليم يضم مجموعة من السكان الدائمين، له حكومة قادرة على الحفاظ والسيطرة على الاقليم وإدارته .

أما لدى إبن خلدون فيرى أنها ظاهرة في كل مرة تنتهي فيها الدورة السياسية فهي لا دائمة ولا مستقرة، وهذا انطلاقا من عدم ثبات ظواهر المجتمع الانساني وفي هذا قال "أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الايام والازمنة وإنتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الاشخاص والأوقات والأمصار فإن ذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة .

نشأة الدولة:

يرى إبن خلدون أن الضرورة تدفع الانسان إلى الاجتماع مع غيره لتلبية رغباته وتحقيق إحتياجاته ، وأن حياة الانسان لا قيمة لها اذا عاش منعزلا، وأنه لا بد أن يعيش في اطار مجتمعه الذي يفرض عليه والانصهار.

وأن الحياة الاجتماعية هي الضمان لحياة الفرد وإستمراره فهي توفر له وسائل العيش والحماية من كل خطر قد يؤدي إلى إنقراضه ولتفادي الظلم ونشر الحق وجب على الأفراد إختيار شخص قوي قادر على مواجهة المشاكل ذو عصبية، ذو قوة لأنها هي أساس الحكم ودون ذلك يتعذر عليه آداء مهامه وعليه فالقوة والعصبية هي أساس نشأة الدولة وأن الدول تقوى على إخضاع أفراد المجتمع لتحقيق الوحدة والتعاون والانسجام، ويقول "فإستحال بقائهم... دون حاكم يزع بعضهم عن بعض وإحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم".

البرتغال
قشتالة
الأرغون
بنو نصر
غرناطة
الجزائر
بجاية
تونس
قسنطينة
وهران
طنجة
الحفصيون
بسكرة
تلمسان
الزيانيون
فاس
إمارة الزاب
قابس
مكناس
الأغواط
طرابلس
قفصة وتوزر
بنو سلمان
المرينيون
غرداية
مراكش
بني مزغن

يرى إبن خلدون أن نشأة الدولة ترجع إلى العصبية بداية بالاسرة ثم تطور إلى القبيلة فالقبائل الاخرى والتي ترتبط بالاتفاق أو التحالف أو القوة، الدولة ضرورة إجتماعية بدونها لا يمكن العيش ولا يمكن أن يكون المجتمع "فالدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة... والعمران دون الدولة متعذر لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع...".

كما أنها ضرورة فطرية لحاجة الفرد إلى الأمن والعيش بسلام وتحقيق الطموحات والأهداف بالاضافة إلى تأمين الضرورات الحيوية والكمالية فضلا على أنها ضرورة دينية على إعتبار أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فهي آداة لتنفيذ الأحكام الاسلامية ذات البعد الجمعي والمجتمعي.

ركز إبن خلدون كثيرا على ذكر العصبية كعامل وأساس لقيام الدولة كما إعتبرها ركيزة من ركائز التجمع العمراني وعجلة حركة التاريخ ويرى ساطع الحصري أن العصبية في فكر إبن خلدون لا يستطيع الباحث أن يفهمها من الوهلة الأولى بل عليه أن يتدرج في ذلك فإبن خلدون بنى نظريته بالتدرج وليس دفعة واحدة .

كلما كانت العصبية أشد وأهلها أكثر كلما كانت الدولة أقوى وملكها أوسع وأمدها أطول ويقع عليها العبء في المحافظة على تماسك أفراد المجتمع، كما أنها أحد الأسس التي يقوم عليها علم العمران ويضيف إبن خلدون عامل الدين لقيام الدولة أو سقوطها، وأكد أن نشأة الدولة تقوم على عناصر مادية ومعنوية وأخرى مشتركة بين مادية ومعنوية.

ربط إبن خلدون كل الأحداث والتغيرات التي تطرأ على المجتمع بوجود أو فقدان العصبية، وهذا لتميز المجتمع الانساني بالتغيير، بنى إبن خلدون رؤيته السوسيولوجية التاريخية وفق ما تابعه من أحداث عصره سقوط الخلافة العباسية في بغداد ونهاية الحكم العربي في الأندلس، وثورات أخرى وحركات تغيير قامت بها قبائل متعددة، سقوط دول وقيم أخرى، كل هذه الاحداث عاشها إبن خلدون وشارك في صنع بعضها، ورأى أن أحوال المجتمع والبلدان تتغير وتنتقل من حال إلى حال وهذا خاضع للحتمية التاريخية .

سبق إبن خلدون أعلام الفكر الأوروبي فيكو وهوبز في القول بالتعاقب الدوري للحضارة ونظريته المعروفة في هذا المجال تفسر التاريخ بالحركة الدائرية، وأن الدولة تتحرك في نظام دائري متواصل وفي تعاقب دوري بين النشأة والازدهار والانحطاط وأن الحكم تتعاقب فيه أجيال تكون نماذج ستيكولوجية فيأتي أولا الحكام العادلون ثم الطموحون ثم أنصار طبقة الاغنياء ثم المستهترين ثم الطغاة، وأن هذه الفوارق النفسية هي التي تفسر زوال الأسر الحاكمة وإحلال غيرها محلها، ويحدث هذا التعاقب خلال قرن من الزمان ففي فترة معينة يميل الحكام للهو والدعة ويأتي بعد الحكام الأقوياء آخرون يعتقدون أن الحكم ليس ثمرة الجهود وأنه مكتسب بالوراثة ومنه يضمحل الحكم ويزول.

عوامل قيام وانهيار الدولة:

ذكر إبن خلدون أن عوامل بناء الدولة هي نفسها عوامل الانهيار فمثلا العصبية ضرورية لبناء الدولة، والملك يكون سببا في القضاء عليها، والمال ضروري لنفقات الدولة لكن الترف منذر بالزوال وعليه فالعوامل التي تبني وتقوي الدولة في ظروف وأطر مخالفة تضعفها وتؤدي إلى إنهيارها.

العامل الاجتماعي:

فنجد أن العصبية هي قرابة للعصب والتحام قبلي وتضامن إجتماعي وهي النواة الأولى المدافعة وهي مفتاح الديناميكة الاجتماعية، لكن اذا وصلت الدولة إلى مرحلة البذخ والترف فإنها تضعف وتنهار.

العامل الاقتصادي:

عن طريق المال تؤسس الدولة هياكلها وتنجز مشاريعها وتنفق نفقاتها وتسدد إحتياجاتها وتحقق العمران والمجد، فاذا فقد التحكم في موارده، أو إذا كثر الاصراف والبذخ والانغماس في الشهوات والملذات والراحة والاتكال على الغير ليس على مستوى الحكام فقط وانما على مستوى الرعية لأن الناس على دين ملوكهم فيتصاعد الإنفاق ويتراجع البناء والإعمار ويتوقف الانتاج، ترتفع نفقات الدولة مما يؤدي بالحكام إلى جلب المال من الرعية بوجه غير مشروع فينتشر الظلم فالخراب ثم إنهيار الدولة.

العامل الأخلاقي:

فالاخلاق والفضيلة هي قوة ودعامة سلطة الدولة وعموما تتوفر عند الجيل الأول مؤسس الدولة، وتؤدي الرذائل والمعاصي إلى ضعف الدولة فإنقراضها ويضيف إبن خلدون أن الترف يكون سبب في فساد الاخلاق وإنتشار المعاصي.

العامل السياسي:

فالسياسة هي التي ترسم معالم ومحاور مجالات تصرف الدولة في السلم والحرب، فاذا كان السياسي يحسن تدبير شؤون الدولة حافظ على وجودها، أما إذا إنحرف عن الحكمة وحسن التصرف وإنفرد بإتخاذ القرارات دون مشورة الحاشية والرعية وكذا إنتشار الاستبداد والظلم والغطرسة كل هذه السلوكات تكون بمثابة معول هدم فيعجل بخراب الدولة وإنهيارها.

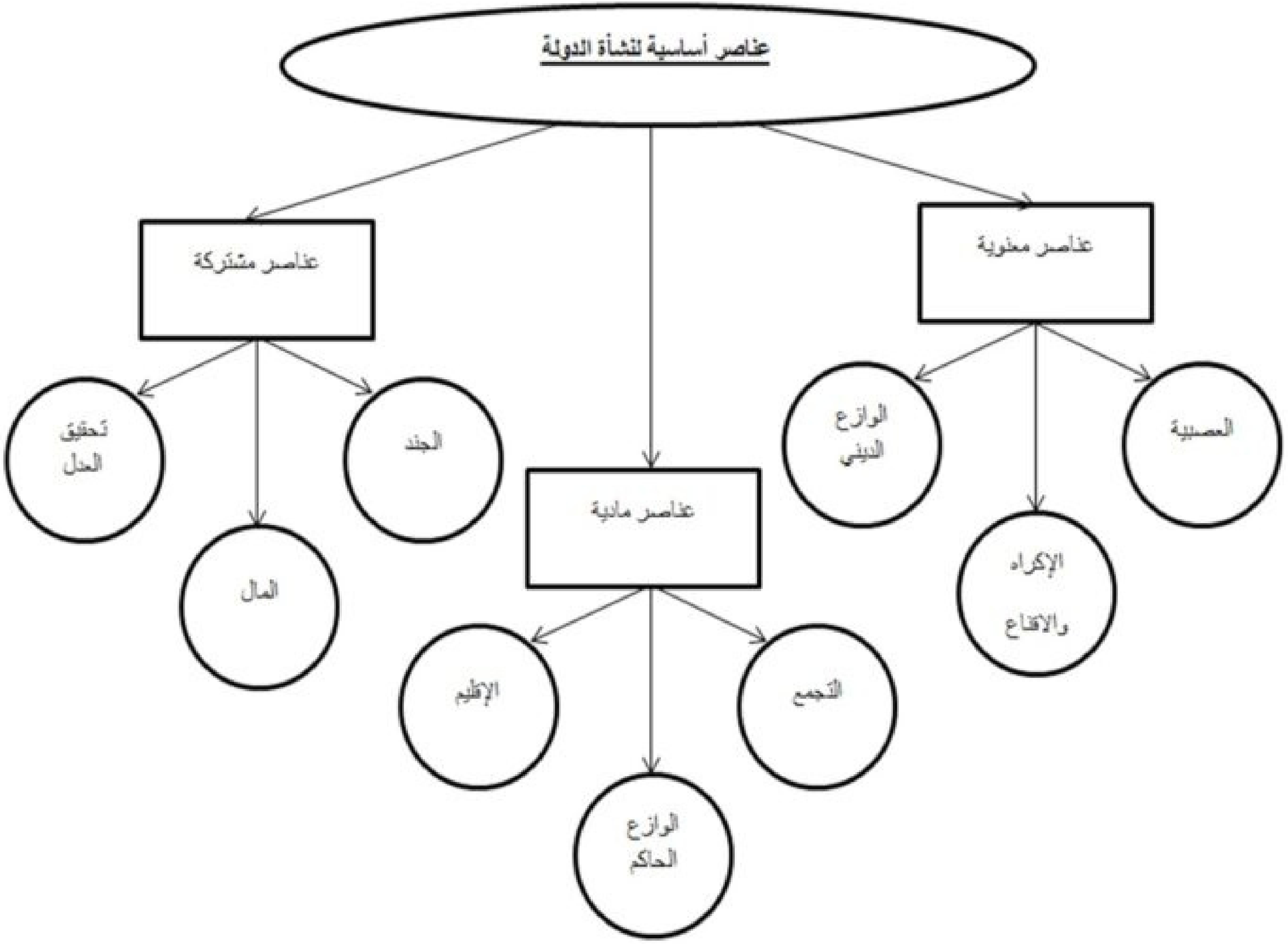
عناصر أساسية لنشأة الدولة
عناصر مشتركة
عناصر مادية
عناصر معنوية
تحقيق العدل
الجند
المال
الإطيم
التجمع
الوازع الحاكم
الوازع الديني
العصبية
الإكراه والاقناع

أطوار الدولة:

حدد إبن خلدون عناصر الدولة بالشعب والاقليم والسلطة، كما حدد لها أطوار وأن حركتها شبيهة بحركة الانسان فهي تمر بثلاث أطوار النشأة والتكوين، النضج والاكتمال، الهرم والشيخوخة لتقوم على أنقاضها دولة أخرى، وأن مرحلة البناء والتشكيل تشبه ميلاد وطفولة الفرد وأن جيل هذه المرحلة يتمتع بالخشونة والبداوة وقوة الأخلاق مما يمكنه من حماية الدولة الفتية، تليها مرحلة القوة والازدهار وتبلغ الحضارة أوجها، ويتحول جيل هذه المرحلة إلى البذخ والترف والكسل فيتجه الحكام والمسؤولون إلى الراحة والدعة فينغمسون في الملذات والاسراف والشهوات فتقوم مرحلة الإنحطاط والضعف مما يؤدي إلى فناء الدولة.

وظائف الدولة:

تقوم الدولة بوظائف كثيرة فخارجيا تتولى مهمة الدفاع عن الشعب والاقليم وذلك بتهيئة كل أسباب الحماية ووسائلها كتنظيم الجيش وتوفير السلاح، أما محليا فمن مهامها حفظ النقود من الغش، فرض وجباية الضرائب، مراقبة الأسواق وملاحقة الغشاشين، توفير الامن والعدالة، الفض في النزاعات بين الافراد وحماية الاشخاص والحريات .

خاتمة:

بعد هذا العرض نصل إلى النتائج التالية:

- الدولة لدى ابن خلدون ظاهرة تنتهي فيها كل مرة الدورة السياسية من مميزاتها عدم الاستقرار وعدم الديمومة.

- أنها ضرورة إجتماعية وسياسية ودينية.

- أنها قائمة على العصبية، وقد أصاب إبن خلدون لما طرح فكرة ان العصبية قد تكون رابطة، أو مجموعة روابط ولم يحصرها في مضمون واحد .

- أحوال الدولة تتغير شأنها شأن الافراد. وأنها تمر حتما بمراحل اخرها الاضمحلال والانهيار.

- تقدم إبن خلدون بأشواط كبيرة على علماء الاجتماع والسياسة وقد تأثر بآراءه الغرب واعتمدوا عليها في نظرياتهم في هذا المجال ذكر جورج سارطون أن إبن خلدون لم يكن أعظم مؤرخ في العصور الوسطى فحسب بل كان من أوائل فلاسفة التاريخ سبق ميكافيلي وبودا وفيكو وكونت وكورنو.

مراجع المحاضرة:

- ربيعة شبلي ، عبد القادر مزي: السلطة والقبيلة من خلال كتاب المقدمة لعبد الرحمان إبن خلدون، مجلة الساورة للدراسات الانسانية والاجتماعية، العدد 06، ديسمبر 2017.
- رياض عزيز عبد الهادي: مفهوم الدولة ونشأتها عند إبن خلدون، مجلة العلوم السياسية، عدد خاص.
- سامية بن عمر: الدولة عند إبن خلدون، مجلة العلوم الاجتماعية، مجلد 01، العدد 02، مارس 2007.
- هيام عبد الفتاح: نظرية الدولة قراءة نقدية مقارنة بين الفكر الاسلامي والفكر الغربي في ضوء نظرية إبن خلدون والنظرية المركسية، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، عدد 19، نوفمبر 2019.
- محمد أمين بكيري: فلسفة نشأة الدولة عند إبن خلدون من فلسفة القبيلة إلى فلسفة الدولة، مجلة صوت القانون، المجلد 7، العدد 02، نوفمبر 2020.